

دمشق في العصر البيزنطي

بشير زهدي

لمحة تاريخية موجزة عن عصر الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) :

اعتبر بعض المؤرخين بداية تاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) في عهد الامبراطور (قسطنطين الكبير ٢٧٤ - ٣٣٧) الذي أسس مدينة (روما الجديدة) في موقع (بيزنطة) في ١١ مايس ٣٣٠ م . دون أن يكون هناك أية قطعة بين (روما) و (القسطنطينية) اللتين اعتبرت كل منهما متممة للأخرى طوال ثلاثة قرون . وكانت أزمت القرن الثالث قد قلبت أسس الامبراطورية الرومانية وأوضحت خطر غزوات البرابرة والجرمان . فكان لا بد للامبراطورين (ديوكليسيان) و (قسطنطين) من القيام جدياً باصلاح عام . وكان الامبراطور عصرئذ كالب يعبد بطقوس شرقية . وكانت الامبراطورية الرومانية تحكمها سلالة حاكمة حكماً مطلقاً . وقد ظهرت مشاكل الدفاع عن الحدود الامبراطورية ، وقضايا وراثية العرش وضرورة الحكم الرباعي (اوغستان ، وقيصران) للامبراطورية الرومانية في الشرق والغرب . ولكن الامبراطور (قسطنطين الكبير) استطاع أن يحتكر السلطة لمصلحته ، ويصبح سيد الغرب بعد انتصاره على خصمه الامبراطور (ماكسانس) في (بونت ميلفيوس)

★ أمين المتحف الوطني بدمشق وأستاذ محاضر في جامعة دمشق .

عند أسوار روما في عام ٣١٢ ، ويصبح سيد الشرق بعد انتصاره على خصمه (ليكيونيوس) واستطاع أن يجعل الامبراطورية الرومانية ذات طابع مسيحي وشرقي . وكان صهر الامبراطور ديوكليسيان (جالير ٣٠٥-٣١١) قد حرص على اعلان التسامح Edit de Tolérance عام ٣١١ . وأصدر قسطنطين اعلان ميلان l'Edit de Milan الذي تقررت به حرية العبادة . والجدير بالذكر أن المؤرخين يذكرون أن قسطنطين بينما كان متجهاً في حملته الحربية ضد خصمه (ماكسانس) ظهر له في الفضاء صليب مع عبارة (In hoc signo vinces) ستنتصر بهذه العلامة) فرسم شارة (الصليب) على (رايته Labarum) . وهناك من يذكر اعتناقه المسيحية في نحو عام ٣٢٣م في حين أن الآخرين من المؤرخين يتحدثون عن ميله الى المسيحية منذ عام ٣٢٠م وتعميده قبيل وفاته . وعند وفاته اعتبرته الكنيسة أحد قديسيها . وفي الواقع اعترف بالمسيحية كديانة شرعية ومنحتها امتيازات جعلتها قوية ففقت على الوثنية نهائياً . وهكذا استلم قسطنطين الامبراطورية الرومانية وثنية فجعلها مسيحية . واعتبر المؤرخون تأسيس مدينة روما الجديدة (القسطنطينية) حدثاً تاريخياً بارزاً . ورغم أنه لم يحرم (روما) من مكانتها ، فانها لم تعد العاصمة الفعلية بعدما جعل معها عاصمة ثانية (روما الجديدة - القسطنطينية) تمثل الحياة والمستقبل ، مقابل الانحطاط والماضي . . . مما أكد انتصار الشرق على الغرب ، وبشر بظهور حضارة جديدة .

ويلاحظ المؤرخون بين عهد (قسطنطين الكبير) وعهد (جوستنيان الأول) ظهور عهدين هامين أيضاً هما :

— عهد الامبراطور (تيودوس الأول الكبير ٣٧٩ - ٣٩٥) الذي اعتبر آخر امبراطور يحكم فعلاً الامبراطورية الرومانية في الشرق والغرب .

— عهد الامبراطور (تيودوس الثاني) الذي وسّع العاصمة القسطنطينية وجعلها عاصمة الثقافة بعدما أسس فيها جامعة تضم واحداً وثلاثين كرسيًا جامعيًا وتدرس اليونانية واللاتينية .

ويلاحظ تزايد معارضة الشرق والغرب وبخاصة بعدما تمركزت في الشرق القوى الحقيقية المختلفة الفعالة ، وغداً مركز الثقافة والفعاليات المختلفة ، ويضم

المقاطعات الغنية والمنتجة ٠٠٠ الخ ٠٠٠ وكان (اوسابيوس ٢٦٥ - ٣٤٠) قد
تثقف في انطاكية السورية وأصبح صديق الامبراطور قسطنطين ، وعرف كأول
مؤرخ كنسي ، ويعود اليه وصف ظهور المسيحية وعلاقتها بالدولة . وفي عام
٣٨٦ انتقل القديس (ايرونيμος) (٣١٥ - ٤٢٠) الى بادية الشام ليعيش حياة
العزلة ، فاعتبر ذلك بمثابة إسهام في ادخال حياة (الرهبنة) الى سورية ، وتأكيده
للاعتقاد بأن في جمال القيم الروحية ما يحجب المرء بالاعتزال عن هذا العالم
الفاني ، والاستشهاد في سبيل هذه القيم الروحية ٠٠٠) .

بعد وفاة الامبراطور (تيودوس الأول الكبير) عام ٣٩٥ م . ظهر بوضوح
انقسام الامبراطورية الرومانية الى امبراطورية رومانية غربية يحكمها ابنه
(هونوريوس) و امبراطورية رومانية شرقية (بيزنطية) يحكمها ابنه الآخر
(اركاديوس ٣٩٥ - ٤٠٥) .

إذا كان (قسطنطين الكبير) أسس امبراطورية بيزنطية ذات طابع شرقي
ومسيحي ، فإن على خلفائه حتى عهد الامبراطور (جوستنيان) الدفاع عن
المسيحية ضد النظريات المختلفة الدينية المتعلقة بطبيعة السيد المسيح ، والجدير
 بالذكر أن تلك الخصومات لم تكن لأسباب دينية بحتة ، لأنها كانت تتضمن في الواقع
أهدافاً ومدلولات سياسية . وهكذا فقد ظهر صراع القسطنطينية والمقاطعات
اليونانية من جهة ، والمقاطعات التي تبنت مذهب الطبيعة الواحدة (أي سورية
ومصر) وقد عقدت مجامع دينية كنسية مختلفة في (القسطنطينية) عام ٣٨١
لمواجهة الارياانية ، وفي (ايفيز) عام ٤٣١ لمعالجة أفكار نستوريوس وفي
(خلقيدونيا) عام ٤٥١ للبحث في آراء القائلين بالطبيعة الواحدة (المونوفيزيين) ، مما
أوضح ما وصلت اليه علاقات الشرق بالغرب ، وعلاقة البابا بالامبراطورية
البيزنطية ، وعلاقة الامبراطورية البيزنطية بسورية ومصر . وكان من نتائج
المجمع الديني في خلقيدونيا عام ٤٥١ نمو الشعور الوطني والقومي في سورية
متخذاً مظهراً دينياً وانضم الى أتباع هذا المذهب في وقت قصير كثير من الناقمين
على سياسة الامبراطورية البيزنطية حتى غدا مذهبهم الديني يعبر عن وعي قومي

وشعور وطني واتجاه البلاد نحو الاستقلال . . . مما لفت أنظار البيزنطيين الى خطر نتائج خطأ سياستهم . فحاول الامبراطور (زينون ٤٧٤ - ٤٩١) كسب عطف السوريين والمصريين ، ووضع حد لاستيائهم ، فأصدر مرسومه Henoticon عام ٤٨٢ ولكن ذلك كان بدون جدوى . واستمر الامبراطور (انسطاس ٤٩١ - ٥١٨) على ترضية أتباع مذهب القائلين بالطبيعة الواحدة ولكن بدون جدوى .

وكان العرب الفساسنة الذين غادروا بلادهم اليمنية بعد خراب سد مأرب ، واتجهوا شمالاً الى سورية ، فالتقوا بإخوانهم العرب من قبيلة بني سليم وغيرهم . واعتبروا أنفسهم خلفاء وورثة العرب الأنباط والتدمريين بعدما أصبحوا أكبر وأقوى قبائل بادية الشام . امتدت منازلهم من العقبة جنوباً حتى الرصافة شمالاً فعهد اليهم الروم البيزنطيون بمهمة الدفاع عن البادية ونشر الأمن فيها وتأمين الحماية لها . فحقق العرب الفساسنة كل ذلك . ووجدوا في المسيحية ما جذبهم إليها وحملهم على اعتناقها فصاروا من أقوى المؤيدين للمذهب الطبيعة الواحدة .

وعندما عهد الامبراطور (جوستينوس الأول) الى ابن أخيه (جوستنيان) بمهمة حربية لقتال الساسانيين ، مر الأمير (جوستنيان) بمدينة منبج السورية التي كان فيها رجل صالح له ائنة اسمها (تيودورا) تميزت بجمال الملامح ، وكثرة الذكاء ، والأخلاق الفاضلة . . . حتى قيل عنها . . . من المستحيل أن يصف انسان ما جمال صورتها في كلمات ، أو يصوره في آية من آيات الفن) . . . مما يفسر ولع (جوستنيان) بها ، وطلبه يدها من أبيها الذي وافق بشروط أهمها محافظتها على مذهبها . . . وتم هذا الزواج فعلاً في عام ٥٢٦ م . ووافق عليه أخيراً عمه الامبراطور (جوستينوس الأول) الذي منح (تيودورا) لقب (بطريق) . فانطلقت السنة الحاقدين والحاسدين والفاستدين في اختلاق الأباطيل التي تشوه سمعتها وحقيقة بيئتها الصالحة . . . في حين أن التاريخ سجل لها صفحات مجيدة وخالدة تحدثت عن سمو تفكيرها ورجاحة عقلها مما جعلها في طليعة مستشاري زوجها الامبراطور (جوستنيان) وهي التي أنقذت بشجاعتها وجرأتها الأديبة عرشه عندما اندلعت ثورة الحزبين (حزب الأخضر) الذي كان يضم أتباع الامبراطور البيزنطي السابق (انسطاس) ، و (حزب الزرق) الذي كان يتظاهر

بتأييده لأسرة الامبراطور (جوستنيان) الحاكمة . وبلغت هذه الثورة من الخطورة درجة جعلت الحاشية تنصح الامبراطور (جوستنيان) بالفرار والنجاة بعدما نادى المتمردون بـ (هيباتيوس) امبراطوراً . فالتفتت (تيودورا) الى زوجها (جوستنيان) قائلة قولها المأثور : (. . . ان كل رجل لا بد له أن يموت ميتة واحدة . والموت للملك أفضل من العزل والنفي أيها الامبراطور : اذا أردت أن تنقذ حياتك ، فليس هناك شيء أسهل من ذلك ، فلديك سفنك ولديك البحر . أما أنا ، فاني أوافق على القول القديم : الامبراطورية أحسن كفن للموتى . . .) فتأثر زوجها (جوستنيان) بكلماتها وعباراتها الشجاعة ، فأصدر أوامره لقائده (بليسايريوس) بالصمود والهجوم على المتمردين والقضاء عليهم . . . وكان مهتماً بتحقيق وحدة الامبراطورية الرومانية والشرقية ، وانقاذ مقاطعاتها من البرابرة ، وقد نجح الى حد ما في استعادة افريقيا وقسم من اسبانيا والقضاء على عدوان (الاوسترجاتيين) في ايطاليا . . . مما لفت نظر كسرى الذي أخذ يعد كل ما يلزم للهجوم على الامبراطورية البيزنطية وتأكيد سيادته على الشرق . وبعدما كان الهجوم الساساني الأول قد صدته قوات القائد (بليسايريوس) فان الساسانيين جددوا هجومهم عام ٥٤٠ م في عهد (كسرى الأول انوشروان ٥٣١ - ٥٧٩) . وكان (الحارث الثاني بن جبلة الفساني ٥٢٩ - ٥٦٩) قد حارب (المنذر الثالث) ملك الحيرة عام ٥٢٨ م ببسالة لفتت أنظار الامبراطور ، وأثارت اعجابه فمنحه لقب (فيلارك) و (بطريق) وبعدما تحمل كسرى الخسائر الكبيرة في حملته العدوانية على الرها ، وافق على وضع حد للحرب عام ٥٤٥ م كما قبل (جوستنيان) بدفع مبلغ كبير من الذهب . وفي عام ٥٦٣ لبي الحارث الثاني دعوة الامبراطور (جوستنيان) لزيارة (القسطنطينية) التي استقبل فيها بحفاوة كبيرة . وظهر بين البيزنطيين بملابسه العربية الزاهية والجميلة والمتميزة ، ومظهره العربي المهيّب . . . مما لفت الأنظار اليه ، وأثار الانتباه نحوه ، وترك الأثر القوي في نفوس الجميع مدة طويلة ، حتى ان موظفي البلاط كانوا يهدئون الأمير الصغير (جوستينوس) بقولهم : (اسكت ، والا استدعينا الحارث . . .)

وكانت (تيودورا) من أتباع (مذهب الطبيعة الواحدة) الذي استطاع أن يجد العطف والرعاية والحماية طوال حياتها . وقد قابلها الملك الفسائي الذي كانت زيارته للبلاط البيزنطي خير مناسبة لدعم هذا المذهب ، وتعيين (يعقوب البرادعي) أسقفاً لكنيسة القائلين بالطبيعة الواحدة . وكان (جوستنيان) أمر بأعداد مجموعة القوانين (دايجست - الموجز) التي اعتبرت بمثابة (المعبد المقدس للعدالة) .

اعتبر المؤرخون عظمة الامبراطور جوستنيان في القرن السادس مثل عظمة مبنى كنيسة القديسة صوفيا ، وشبهوا الازدهار في عهده بازدهار آثينا في عهد الملك بريكليس . تميز بحسه الامبراطوري للعظمة ، اهتم بالغرب والماضي ، وحرص على وحدة الامبراطورية الرومانية الشرقية والغربية ، وبذل في سبيل ذلك الجهود والأموال مما أضعف القسم الحي القوي في امبراطوريته . وكانت زوجته الامبراطورة المنبجية (تيودورا) تعتبر طموحه الكبير بمثابة (سراب غربي Mirage occidental) وأن المهم هو المقاطعات الشرقية ووجوب الاهتمام بها . فتوفيت متمسكة برأيها ، في حين أن زوجها (جوستنيان) اضطر الى فرض الضرائب وبيع الموارد . . . وممارسة سياسة العنف والحكم المطلق في سبيل فرض المعتقد الواحد . واستطاعت الدبلوماسية البيزنطية أن تدفع خطر البرابرة عن الامبراطورية . ولكن وفاته أظهرت أخطاء سياسته . لقد أثار تزايد نفوذ العرب الفساسنة حذر البيزنطيين وتحول الى جفاء وعداء . وتأثر (المنذر ابن الحارث الفسائي) من سوء نوايا الامبراطور (جوستينوس الثاني) تجاه العرب الفساسنة . ولكن الأخطار الخارجية حملت الطرفين على تسوية خلافتهما في عهد الامبراطور الجديد (تيريوس الثاني ٥٧٨ - ٥٨٢) . واستمر الفرس على شن غاراتهم العديدة منذ عام ٥٧٢ في عهد كسرى الثاني والملوك البيزنطيين (جوستينيوس الثاني) و (تيريوس الثاني) و (موريس ٥٨٢ - ٦٠٢) . وقد اضطر كسرى لعقد الصلح مع الامبراطور البيزنطي (موريس) نتيجة اندلاع حرب أهلية في بلاده وعندما اعتلى العرش البيزنطي (فوكاس ٦٠٢ - ٦١٠) بدأ عهده بسلسلة من أعمال العنف والفتك بأصدقاء أسلافه وعندما عاد (كسرى الثاني) الى سياسة الهجوم مكتسحاً سورية مخرباً مدنها عام ٦٠٨ م

اتجه القائد (هرقل) الى القسطنطينية التي توج فيها امبراطوراً في ١٥ تشرين الأول ٦١١ في فترة حرجة . وكان الساسانيون قد حكموا (الحيرة) بعد وفاة (النعمان) فثار العرب ضدهم وضد عميلهم (اياس بن قبيصة ٦٠٢ - ٦١١) فكان أعظم انتصار حققه العرب على الساسانيين في معركة (ذي قار) الشهيرة .

اتجه القائد الساساني (شهربرز) الى سورية الوسطى عام ٦١٣ فاستولى على أفااميا وهدمها كما هدم انطاكية ، واستطاع أن يستولي على دمشق ويحتلها . ثم تابع زحفه نحو مدينة (بيت المقدس) التي استولى عليها ، وسلب خشبة (الصليب المقدس) التي كانت تعتبر أثمن شيء في هذه الحياة الدنيا .

كانت الامبراطورية البيزنطية قد أصيبت بالضعف منذ عام ٥٥٦ م وقد كثرت الضرائب وحدثت الزلازل وانتشر المرض وأصبح المواطنون في حالة يأس وبؤس . واعتبروا كارثة هذا العدوان والمعاناة المتعددة الميادين بمثابة دلالة على قرب انتهاء الحياة . .

وجه (كسرى) الى الامبراطور (هرقل) رسالة تفيض بالغرور والكبرياء بل والوقاحة ، مما جعل الامبراطور (هرقل) يقسم أن يسير الى ميدان القتال بنفسه على رأس قواته المحاربة . فاهتم منذ عام ٦٢٢ م بقتال الساسانيين جدياً ، وشن ست حملات حربية دامت حتى عام ٦٢٧ م انتهت بهزيمة الساسانيين وانسحابهم للدفاع عن عاصمتهم ، في وقت استطاع فيه (هرقل) أن يحرق معابد النار في عاصمة ميديا ومدينة (زردشت) .

عاد (هرقل) الى سورية وعاد اليها الحكم البيزنطي بكل مساوئه . وكانت التساؤلات تتردد : من سيكون من جديد سيد العالم ولم يكن هناك من يتوقع بأن القبائل العربية المتقاتلة فيما بينها ستوحدها دعوة محمد ﷺ الى الايمان بالخالق العظيم وكتبه المقدسة وأنبيائه المرسلين ، في فترة بلغ فيها استياء المواطنين درجة جعلتهم يعتبرون أعمال الساسانيين والبيزنطيين بمثابة أعمال قطاع الطرق . وقد تفنّنوا في أعمال السلب والنهب ، والظلم والجور ، والقتل والفتك . . . فوجد السوريون في قوة أبناء عربوهم خلاصاً من يأس نفسي ، وتحرراً من ظلم أجنبي .

لم ينتبه البيزنطيون الى أبعاد الحملات العربية الاسلامية ، وظنوها كالغزوات العابرة السابقة . واستطاع خالد بن الوليد أن يجتاز أرض فلسطين

متجهاً نحو الشمال بطريق الجولان ، وحاول البيزنطيون التمرکز والصمود في شمال الصنمين في مرج الصفر بدون جدوى . وعندما وصلوا الى دمشق في محرم ١٤ هـ / ١٤ آذار ٦٣٥ م فوجئوا بالعرب المسلمين على أبواب دمشق يحاصرون المدينة ويحولون وصول الامدادات الى أعدائهم ، وقد نصب خالد بن الوليد معسكره قرب الباب الشرقي وجامع الشيخ رسلان حالياً . كان المواطنون ينفرون من الحكم البيزنطي ، مما يفسر دعم المواطنين السوريين لأبناء عربوتهم العرب المسلمين ، وقيام وفد من وجهاء دمشق يرأسهم الأسقف والمراقب العام للمالية (منصور بن سرجون والد القديس يوحنا الدمشقي المشهور) . و جرت المحادثات لحماية المواطنين من آلام ومعاناة ويتحدث المؤرخون عن فتح خالد ابن الوليد مدينة دمشق ودخوله الباب الشرقي ولقائه مع أبي عبيدة الجراح في منتصف الشارع المستقيم في قصر البريص الغساني في جوار كنيسة المقدسلاط في شهر رجب عام ١٤ هـ / ايلول ٦٣٥ ، وانسحاب البيزنطيين الى جهة الشمال كما تحدث المؤرخون عن تفاني المقاتل العربي طالباً الاستشهاد ، في حين أن المقاتل البيزنطي كان يحارب دون حماس ، ويروح لا مبالاة وكان المقاتلون العرب في معركة اليرموك ينقضون على خصومهم البيزنطيين بحماس لم يعرفه التاريخ العربي وبعد هزائم البيزنطيين المتتابة ، أدرك (هرقل) الحقيقة ، وشعر باليأس مما جعله ينسحب أخيراً من سورية ويودعها بكلمات يأس ذكرها المؤرخون . وقد علّق المرحوم اغناطيوس يعقوب الثالث على موضوع تحرير سورية من الحكم البيزنطي قائلاً : هكذا أفل نجم هرقل المضطهد من سماء سورية غير مأسوف عليه الخ فشهدت دمشق وسورية وأقطار الوطن العربي عهداً جديداً وحضارة جديدة تعتبر احدى الحضارات العالمية .

لم نشهد في العصر البيزنطي أي تنظيم عمراني يذكر . وبقيت دمشق كما كانت في العصر الروماني تضم المدينة القديمة الآرامية والحى المكدونى الجديد يحيط بهما سور تبلغ أبعاده (١٥٠٠ × ٧٥٠ م) . وهناك أقنية مياه ، وقصر - قلعة في الزاوية الشمالية الغربية ، وأبواب جميلة ومنيعة ، وشارعان رئيسان يجتازان المدينة من الشرق الى الغرب (Decumanus) عرف باسم الشارع المستقيم ، وشارع آخر يصل المعبد بالساحة العامة (الآجورا - الفوروم) . وهناك الملعب هيودروم (مكان المرج ، والسيرك (مكان شارع بغداد) .

ظهر في العصر البيزنطي عنصر معماري جديد هو (الكنيسة) . وإذا كانت دمشق - مثل انطاكية ودورا اوروبوس- شهدت الكنيسة السكنية عندما كان عدد المسيحيين من مواطنيها قليلاً ، مما جعلهم يستخدمون أحد مساكنهم ككنيسة سكنية ، فإن المرحلة التالية تطلبت تحويل المعابد الوثنية (مثل معبد جوبيتر الدمشقي) الى كنيسة عرفت باسم (كنيسة يوحنا المعمدان) . وخلدوا السيدة مريم العذراء بتشييد مبنى الكنيسة المريمية التي تعتبر من أقدم وأهم الكنائس الدمشقية وهناك (كنيسة المصلبة) وغيرها

كما شيد الدمشقيون في العصر البيزنطي الأديرة الضخمة والجميلة التي من أهمها (دير مران) في سفح جبل قاسيون ، في موقع يطل على (الربوة) . وقد تميز هذا الدير بحجراته الكلسية البيضاء التي تبدو دائماً كالضاحكة لأشعة الشمس . وكان يغطي أرضه البلاط الجميل الألوان . وكان هيكله يضم صورة دينية ذات أهمية فنية وقيمة جمالية ، مما جعلها توصف بالصورة العجائبية ، تثير في نفوس مشاهديها مشاعر وجدانية وإيحاءات روحية مختلفة ، وقد تغنى به أحد الشعراء قائلاً :

يا صباحاً بدير مران راقا هجت منا القلوب والأحداقا
ومشت نسمة تؤمك حتى رفعت بالعير فيك رواقا
ونظرنا من ربوة الشام مرأى قلبنا لم يزل له مشتاقا...

كما كان هناك دير قرب الباب الشرقي عرف فيما بعد باسم (دير خالد) . وشيد في ضواحي دمشق أجمل الأديرة والكنائس في صيدنايا ، ومعلولا ، وبيروت والنبك ، و . . . غيرها . ويعتبر (ديرمار موسى الحبشي) قرب النبك و (دير مار يعقوب) في ضاحية (قارا) من أجمل الأديرة المتميزة برسومها الجدارية الجميلة بألوانها وصورها والهامة بمواضيعها الدينية الوثائقية .

وهناك مباني القصور الجميلة الدمشقية التي تعود الى العصر البيزنطي وأخص بالذكر منها (قصر هرقل) في سفح جبل قاسيون ، في موقع يعرف باسم (النيرين) . وقد عرف هذا القصر في العصر السلجوقي باسم (قصر شمس الملوك) . وهناك قصر اكتشف في (حي الحريقة) ، تميز بجمال لوحة الفسيفساء فيه . وكان للعرب الفساسنة في دمشق قصورهم الجميلة من أهمها (قصر

البريص) الذي ورد ذكره في شعر الشاعر العربي (حسان بن ثابت) مادحا
أمرأ العرب الفساسة قائلا :

لله در عصابة نادمتهم يوما بخلق في الزمان الأول
يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

وقد حدّد بعض الباحثين والمؤرخين موقع هذا القصر عند (المقسلاط) وسط
الشارع المستقيم ، قرب الكنيسة المريمية .

وتميزت دمشق بفعاليتها المختلفة السياسية والحربية والاقتصادية
والاجتماعية والثقافية وغيرها .. تركت ذكرياتها وآثارها المختلفة .

فهناك قصة (شاول / بولس) ومطران دمشق (حنانيا) وموضوع (الرؤيا
على طريق دمشق) وقصة الفتاة القديسة (تقلا) التي التجأت الى أحد كهوف
معلولا ، وقصة السيدة الدمشقية التي هجرت مظاهر البذخ والترف في دمشق
لتعيش منعزلة في صيدنايا ... الخ ..

وهناك روائع فنون النحت (مثل منحوتة جذع فتاة من حجر الجير ،
اكتشفت في حي الحريقة بدمشق) وروائع فن الفسيفساء (مثل لوحة الفسيفساء
المكتشفة في أحد القصور في حي الحريقة ، ولوحات فسيفساء اكتشفت في دير العدس
تمثل قافلة مؤلفة من رجل يقود عدة جمال ... الخ ...) وروائع فن الرسم
الجداري المكتشفة في (دير مار يعقوب) قرب قارا ، و (دير مار موسى الحبشي)
قرب النبك .

وهناك روائع الفنون التطبيقية من العصر البيزنطي وأخص بالذكر منها
الآثار الفخارية والزجاجية والحلي الذهبية التي تدل على تقاليد فن الصياغة
الذهبية في دمشق ، وهناك بقايا خيوط ذهبية لثوب أميرة من البروكار « اكتشفت
في منطقة بانياس ... وهناك الأحجار الثمينة (مثل الياقوت واللؤلؤ والزمرد
واللؤلؤ ... الخ ...) المكتشفة في بانياس وغيرها ... وهناك صناعة
الأسلحة الدمشقية منذ عصر (ديوكليسيان) وصناعة النسيج الدمشقي . وهناك
مجموعات النقود البرونزية الدمشقية من العصر البيزنطي . على الوجه : صورة
نصفية أمامية للامبراطور البيزنطي ، وعلى الظهر : حرف M بحجم كبير .

وفي الأسفل الحروف الأولى من اسم دمشق DAM أضف الى ذلك أحياناً تاريخ سك النقود وذلك بالحروف . وفي المتحف الوطني بدمشق مجموعة من هذه النقود البرونزية الدمشقية . وقد تابعت دور السك الدمشقية عملها فسكت نقوداً معدنية للدولة العربية الجديدة ، محتفظة بتقاليدها القديمة المتعلقة بسك النقود، بل وبإدارتها . ويعتقد أن (سرجيوس / سركيس) الذي كان مدير المالية الدمشقي في عهد الامبراطور البيزنطي (هرقل) قد تابع قيامه بوظيفته نفسها في العهد العربي الاسلامي الجديد في دمشق وقد تميزت هذه النقود البرونزية الجديدة بما يلي : على وجه النقد البرونزي : صورة أمامية للخليفة بمظهر قيصر وفي يده سيف طويل مستقيم وعبارة (أمير المؤمنين) بالحروف العربية ، وعلى خلف هذا النقد البرونزي : حرف M بحجم كبير مع كلمة (دمشق) بالحروف العربية ، تؤكد سلامة هذا النقد قانونياً .

وهناك فعاليات ثقافية أنجبت أعلاماً عالميين مثل (يوحنا الدمشقي) الذي تحدث عن الصور المقدسة قائلاً ان أيدينا عاجزة عن تغيير الحدود التي رسمها آباؤنا : انما نحن نحافظ على تقاليدنا الموروثة . ومن أجل هذا ، نسأل عباد الله المؤمنين أن يحافظوا على التقاليد الروحية . فان فقدنا ما أعطيناه بالتدريج من شأنه أن يقوض الدعائم الأساسية ، وهو آت على البناء بأكمله في وقت ليس بالقصير

وكان من أقوال (القديس باسيل ٣٢٩ - ٣٧٩) : ينبغي علينا أن نعاشر الشعراء والمؤرخين والخطباء وكل الرجال الذين نظفر منهم بأي عون لتثقيف أرواحنا (. . .) وكان هناك من يحدد المطالب التعليمية بما يلي : نحن في حاجة الى نوعين من التعليم : ١ - مسيحي ٢٠ - وثني . فنكسب من الأول فائدة للروح ، ونتعلم من الثاني سحر الكلمات وهناك من وجد في الصور إحياءً يبعث في الذهن ذكرى أشياء سماوية . .

ولا بد أن يكون في كنائس دمشق وأديرتها وقصورها مخطوطات مختلفة عشر على بعضها في (قبة الخزنة) في الجامع الأموي بدمشق وحفظت في المتحف الوطني بدمشق تتضمن نصوصاً دينية وليتورجية باللغة السريانية وبخط جميل يدل على مدى الاهتمام بفن الخط .

والخلاصة :

مما تقدم تبدو أهمية دراسة تاريخ (دمشق في العصر البيزنطي) لأن هذه الدراسة جزء من تاريخ دمشق عبر العصور ، ولأن بلادنا أسهمت عرسئذ في مختلف ميادين الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والدولية .

وان مبائنا التي تعود الى ذلك العصر تدل على مدى اهتمام شعبنا بالمحافظة على تراثه الحضاري من مختلف العصور . كما أن آثارنا المختلفة التي تعود الى ذلك العصر ما زالت محفوظة في متاحفنا التي تبدو بمثابة منبر للحضارة ومعهد للبحوث العلمية وجامعة شعبية للجميع .

□ المراجع العربية :

- د. سليم عبدالحق : محاضرات في التاريخ البيزنطي) آملية العام الجامعي ١٩٥٣ - ١٩٥٤ (.
- د. نبيه عاقل : الامبراطورية البيزنطية - دمشق ١٩٦٩ .
- بشير زهدي : دمشق وأهميتها العمرانية والمعمارية عبر العصور (سلسلة محاضرات جمعية أصدقاء دمشق ١٩٨٢) .
- نورمان بيز : الامبراطورية البيزنطية . تعريب: د. حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد - القاهرة ١٩٥٧ .
- أومان : الامبراطورية البيزنطية - تعريب : د. مصطفى طه بدر - دار الفكر العربي - مطبعة الاعتماد بمصر .
- ستيفن رنسيما : الحضارة البيزنطية : ترجمة : عبدالعزيز توفيق جاويد - سلسلة ١٠٠٠ كتاب القاهرة ١٩٦١ .
- فيليب حتي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - ترجمة: حداد ورافق - دار الثقافة - بيروت ١٩٥٨ .

□ المراجع الأجنبية :

- BACHIR ZOUHDI : La Contribution de la Syrie a la Creation de l'art chretien 1974.
- P. LEMERLE : Le Style Byzantin, Paris 1946.
- P. LEMERLE : Histoire de Byzance, P.U.F. 1948.
- LOUIS BREHIER : La Civilisation Byzantine Ed. A. Michel 1970.
- S. RUNCIMAN : La Civilisation Byzantine, Payot. 1.
- A. DUCCELLIER : Les Byzantins (Le Temps qui court) 1963.
- DAVID TALBOT RICE : Byzantin Art A. Pelican Book) 1962.